الفينيقيون وجيرانهم

بقلم الامير موريس شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

١

في متحفنا اللبناني مجموعة نفيسة من كل ما اكتشف من الآثار بعد الحرب ، في بيبلوس وصيدون وغيرهما من مناطق الجمهورية اللبنانية . واهم هذه المناطق سهل البقاع وقسم من فنيقية القديمة . اقول : قسمٌ من فنيقية ، لان التقاسيم السياسية حرمتنا من منطقة عكا في الجنوب ؛ وفي الشمال ، من مملكة أراد او رواد الفنيقية التي دفعت حدودها ، في بعض العصور ، الى داخلية البلاد حتى انتهت في الالف الاول قبل المسيح الى حدود مملكة حماه .

واني احصر بحثي اليوم عن الفنيقيين في ما قبل القرن العاشر ق . م . وبعد ان اقدّم مقدّمة في جرأة هذا الشعب والخدمات التي ادّاها للمدنية العامّة ، ابحث خصوصاً في بيبلوس ، وهي المدينة الفينيقية الوحيدة التي جرت فيها الحفريات على طريقة منظمة .

فنيقية السابقة للتاريخ

كانت فينيقية التاريخية تتألف من اربع ممالك تستقلّ كل منها استقلالاً اداريًا ، ولكنها تتحد جميعها في خدمة المصالح المشتركة بعلاقات متينة ، فضلًا عن ان ساكنيها كانوا كلهم من عنصر واحد يتكلمون لغةً واحدة . وكانت هذه الممالك من الجنوب الى الشمال : صور ، فصيدون ، فبيبلوس ، فأراد . اما مملكتا صور وصيدون ، فلا نكاد نعرف عنهما شيئاً مهماً في العصور

العريقة في القدم ، اللهم ما عرفتنا به الرُقم المصرية والاشورية واليونانية . وما ذلك الا لان الحفريات لم تجرِ فيهما ، حتى اليوم ، على طريقة منظمة . وعلى كل فلا يظهر انه كان لهاتين المملكتين تأثير مهم قبل القرن العشرين ق. م. ولكننا ، اذا وثقنا بشهادة هيرودوطس ، رأينا ان الفنيقيين مصّروا مدينة صور نحو القرن الثامن والعشرين ق. م.

على ان هذا الشعب كان ابعد من ان يُدعى بالاسم الذي شهره به في ما بعد مؤلفو اليونان. فان « الفنيقيين » سُمّوا كذلك نحو القرن السابع ق.م.، في حين انهم لم يكونوا يدعون انفسهم بهذا الاسم. ولنا مثال على ذلك في تسميتنا « بالافرنج » كثيرًا من الشعوب الاوربية لا نميز فيهم بين السكسوني والجرماني والصقلبي .

اما ما كان يسمّي الفينيقيون انفسهم به فهو اسم « الكنعانيين ». وكذلك تدعوهم التوراة فتقول « كنعان يسكن الجبل (اي لبنان) وشواطئ الاردن». وفعلاً فان الكنعانيين ، الذين ازدهرت مدنيتهم في ارض الميعاد قبل وصول العبرانيين ، كانوا من انسباء جدودنا الفنيقيين .

ثم نحن نعرف تطوّرًا حصل في عادات الكنعانيين بين القرن الخامس والثلاثين والقرن الثلاثين ق. م. وذلك في ملاحظتنا احراق الموتى . فان الكنعانيين تركوا عادة احراق موتاهم ، في هذا العهد ، واخذوا بدفنهم . فيمكننا القول ان هذا التطور نتج عن تغيّر حصل في دينهم وفي عناصر شعبهم . ومن ثمّ يمكننا طرح فرضية ، هي ان الفنيقيين بدأوا بتمصير فنيقية في منتصف الالف الرابع ق. م.

ومما يدلّ على انه كانت في فنيقية شعوب قبل الفنيقيين ، آثار ظرّانية متعدّدة محفوظة في مستودعات متحفنا ، كان شعب الطور الظرّاني يستعملها للمدافعة عن نفسه او لصيد الحيوانات .

ولكن استعمال الظرّان سلاحاً لم يتجاوز الالف الرابع ق.م. فتحولت بعده تلك الحجارة ، من اسلحة للدفاع والمهاجمة ، الى ادوات لازمة للقيام ببعض واجبات العبادة . ونحن نعرف ان العبرانيين بعد ان قطعوا البحر الاحمر ،

وقبل ان يدخلوا ارض الميعاد ، اختتنوا بواسطة هذه الادوات الظرانية . كما انه لا شك في ان الشفرات من الاوبسيديين المكتشفة في بيلوس ، والمحفوظة في متحفنا ، كانت تُستعمل للختان ايضاً .

فينيقية التاريخية

اختلط دم العنصر الجديد الطارئ على فنيقية بدم سكانها الاصليين ، فنفخ فيهم روحاً جديدةً اضافت الى رغبتهم الاصلية في قنص الوحوش وصيد الاسماك ، رغبةً ثانية دفعتهم الى المغامرات في سبيل التفتيش عن مورد جديد للارتزاق قد يكون أنفع واغزر مما كانت تدره عليهم جبالهم الحرشاء الملأى بالضواري . فلفتوا انظارهم الى ما وراء الافق ، واخذوا يخاطرون بارواحهم على سطح البحر المضطرب .

وكان اول بلد حطّوا فيه مرساتهم ، وباشروا معه علاقاتهم ، وادي النيل الوافر الخصب . وكان جاذبية خاصة قوية كانت تدفع كلّاً من البلدين الى الآخر فتربطهما بانواع العلاقات المختلفة . كانت مصر خصبة غنية يحكمها فراعنة وامراء محبو البذخ ، كثيرو الرغبة في الترف . ولكنّ الطبيعة التي انعمت على ذاك الوادي بكثير من مرافق الخصب والرخاء ، حرمته الخشب اللازم لجميع مظاهر الترف من قصور شاهقة ، وهياكل ضخمة .

اما فنيقية فكانت ، على الرغم من ضيق مساحتها ، غنية بالغابات من ارز ، وسرو ، وصنوبر . فكان بامكانها والحالة هذه ان تقتطع ما يحتاج اليه فراعنة مصر لاظهار عظمتهم ، وتمجيد آلهتهم . ولما كان الفنيقيون من احذق الشعوب في استخدام الغريزة التجارية ، لم يدعوا هذه المناسبة تفوتهم ، فاستفادوا منها . وبدأت علاقاتهم مع المصريين تتسع وتتمكن منذ العصور العريقة في القدم ، حتى ان فراعنة مصر ، الفي سنة قبل سليمان الحكيم ، كان يمكنهم القول لرؤساء الفنيقيين : « مروا رجالكم ان يقطعوا لنا من أرز لبنان ! »

وهكذا تحوّل الفنيقيون من قنصة وحوش ، وصيادي اسماك ، الى ارباب

تجارات واسعة ، ورحلات شاسعة في البحار . كانوا ينقلون الى مصر الخشب والصمغ والقطران ، ويعودون بالمعادن والانسجة والحجارة الكريمة مما كانت تنتجه الصناعة المصرية المزدهرة في تلك العصور . فيحملون قسماً منها الى بلادهم ، ويطوفون بالباقي ، على شواطئ المتوسط ، وبين جزره ، يتبادلون به مع سكانها المختلفي الصناعات .

ولما كانوا بحاجة الى محالّ يعرضون فيها بضاعاتهم ، او يسيرون منها الى داخلية البلدان ، اخذوا بانشاء تلك المحطّات التجارية وعدّدوها حتى اختطّوا لهم نوعاً من « طريق الهند » الى داخلية اسبانية ، والمحيط الاطلنتيكي ، وجهات البحر الاسود . اما في المواضع التي لم يكن لهم فيها من تلك المحطات ، فانهم كانوا يعرضون سلعهم على الشاطئ او يحملونها طائفين من بيت الى بيت شأن الباعة المتنقّلين في عصرنا .

ولكن الويل للرجل ، وخصوصاً للمرأة ، اذا انفرد او انفردت على الشاطئ . فان هؤلاء الباعة اللطفاء سرعان ما كانوا يأسرون الرجال ويسبون النساء ، فيقلعون بهم ويبيعونهم في اسواق الرقيق . وقد كثر ذلك منهم ، حتى ان هوميروس ، على اعجابه بالفينيقيين ، يدعوهم « بنشالين » اذ يذكر هذا الامر . وكان مؤلفو الفرس يقولون في ذلك قولاً نقله هيرودوطس واقرّه وهو : « ان خطف النساء من اعمال الظلمة ، ولكن السعي في الانتقام من الخاطفين رأيٌ فائل ، لاننا لا نعرف امرأة تخطف دون ارادتها . » (١ : ٤) ولنا في تقاليد اليونان شهادات يُستدلّ منها ان بعض الآباء كانوا يبيعون بناتهم او يعطونهنّ للتجارة الاجانب .

ولكن ، على الرغم من هذه الاعمال ، توصّل الفينيقيون الى عقد اتفاقات عديدة مع زبائنهم ، فكانوا اداة الوصل بين الشعوب المختلفة ، فعرّفوا بعضهم بالبعض الآخر ، وعملوا في ذلك على تعزيز المدنية ونشرها .

* * *

اول من بدأ العلاقات مع مصر من الفينيقيين كان تجار جبيل التي دعاها المصريون اوّلاً « كبن » ، ثم « كپن » ، ثم بيبلوس . ولهذا كان يتحت المصريون

مراكبهم الكبيرة «بالكبنيّة» اوّلًا ثم «بالكبليّة» . ولم تفتأ الاسطورة ان علقت باصل هذه العلاقات المتينة ، فارتقت بها الى عصر عريق في القدم ، ونسبتها الى أصل الهي ، حفظه لنا بلوطرخوس ، فقال ما ملخصه :

حصل في مصر نزاعٌ بين اله الشر سيت واله الخير أوزيريس ، فتغلب الاول على الثاني . واذ ظفر به قطعه إرباً إرباً ورماه في البحر . فحملت الامواج اشلاءه الى شاطئ بيبلوس . ولم تلبث هذه الاعضاء الالهية ان تحوّلت الى نبات ، فظهرت بشكل شجرة غاية في الجمال والارتفاع ، حتى اعجب بها ملك بيبلوس ؟ فأمر بقطعها ، وجعلها احد اركان قصره .

ثم علمت الالهة إيزيس ، امرأة اوزيريس ، ما حلّ بزوجها وما صار اليه . فاعدّت عدّتها للحاق به ، وسافرت الى جبيل - بيبلوس . ولما كانت خبيرة بطبائع بنات جنسها وبنفوذهنّ على ازواجهنّ ، اتصلت بملكة المدينة زاعمة انها تبيع ادوات الزينة وانواع الاطياب . والله اعلم كم كان يهتمّ المصريات ، وعلى مثالهنّ الفنيقيات ، بامور الزينة والتطييب ! وان نساء اليوم ، مع كل ما في حجرهنّ من اصابع حمر ، واقلام سود ، وحناجر وعلب مختلفة ، لابعد من ان يدانينَ نساء القدماء في هذا الامر . فلنتعزَّ ! ولنصبر !

وبعد ان اطلعت ايزيس ملكة بيبلوس على أسرار الزينة المصرية ، فحازت محلّ الثقة عندها ؛ اظهرت حقيقتها وغاية سفرتها ، فنالت من الملك السماح بنقل الشجرة المحتوية على رفات زوجها اوزيريس الذي سوف يبعث حيًا بفضل عنايتها وبرّها به .

وان هذه الاسطورة لرمز واضح لتلك العلاقات ، وهي تتفق والحقيقة التاريخية في ما خصّ قسمة مصر الى مصر عليا او وادي النيل ، ومصر سُفلى او دلتا . واننا نرى في الصور القديمة ان الاله سيت كان يُعبد في مصر العليا ، واوزيريس في الدلتا . ثم بعد منازعات عديدة تغلّبت الدلتا ، واجبرت وادي النيل على السجود لالهها . اما رحلة ايزيس الى بيبلوس وعودتها فهي رمز للعلاقات بين البلدين وما تقدّمه الواحدة للاخرى من المرافق . فبيبلوس تعطي الخشب وما اليه ، ومصر الصناعة والفنّ . (للبحث صلة)